HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

التلقي في الفكر البلاغي العربي

المهدي إبراهيم الغويل[1]

[1]كلية اللغة العربية ـ الجامعة الأسمرية الإسلامية

تاريخ الاستلام: 2020/09/25م تاريخ النشر: 2020/10/01م

المستخلص

نري من خلال ما تم عرضه من نماذج مثلت قراءة الزمخشري لأسلوب الالتفات بما يثبت أن هذا الأسلوب ليس عملا عشوائيا وليس ضربا من التكلف , وإنما هو عمل يقتضيه السياق ويهدف إلى زيادة الكفاية الأسلوبية من خلال التجديد والمغايرة مع الأخذ بالاعتبار استيعاب حال المتلقي كما يقوم الالتفات على فكرة صدم أفق الانتظار لدى المتلقي مما يترتب عنه توليد الصدمة لديه ويترتب عنها اليقظة والنشاط الذهني وأمكننا أن نستخلص مما سبق أن ،قف على تطور البلاغة العربية وعدم قصورها في معالجة النص واستكناه دلالاته وبما يشكل في بعض الأحيان الأساس الذي بنيت عليه نظريات حديثة في بلاغة النص وتقنيات الخطاب

كما يمكن لنا من خلال ما سبق استخلاص أن الالتفات وما ينطوي عليه من أمور نفسية ومعنوية تجعل الالتفات في دائرة علم المعاني ؛ فهو لا يقف عند جانب الزخرف اللفظي الذي يعنى به علم البديع ومع ذلك فإنه لا يهمنا البحث في التفريعات والتقسيمات البلاغية بقدر ما يهمنا البحث في صيغة الالتفات من حيث القيمة الجمالية والدلالية ؛ وعلى هذا فلا ينبغي الفصل أساسا بين المباحث البلاغية وكذا علوم البلاغة جملة عند البحث في هذه القيم الذي هو أساس البحث البلاغي ؛ فعملية الفصل بين علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع هي عملية تنظيمية لا غير .

يدور معنى الالتفات في اللغة على اللي وصرف الشيء عن جهته . ولفت وجهه عن القوم صرفه والتفت عنه أعرض[1] . وفي القرآن الكريم (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) هود الآية : 81 . أمروا بعدم الالتفات بوجوههم حتى لا يروا ما نزل بقومهم من العذاب .

ويمكن من هذا أن نرى أن الالتفات يطلق حقيقة على الالتفات بمعناه المادي الذي هو الانصراف عن الجهة إلى جهة أخرى .

والذي استقر عليه الاصطلاح البلاغي أن الالتفات هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث : التكلم والخطاب والغيبة , مع أن الظاهر في متابعة الكلام تقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطرق المختارة أولا , دون التحول عنها .

وقد وقع الاختيار على بحث الالتفات لدى الزمخشري لأن الزمخشري يعد أول من بين قيمة الالتفات البلاغية وبين أسراره وجمالياته بصورة لم يسبق إليها كما ان البلاغيين من بعده بنوا آراءهم على ما قاله الزمخشري كما أن الزمخشري تعامل مع هذا الموضوع تعاملا خاصا يتساوق مع ما توصلت إليه الدراسات الحديثة في مجال التلقي , ودور المتلقي ؛ حيث تحدث عن الأثر النفسي للالتفات في المتلقين كما أنه ألمح إلى الجانب الزخرفي وعلاقته بالتركيب .

ولو تتبعنا كيفية معالجة علماء البلاغة الأوائل لمصطلح الالتفات لوجدنا أنفسنا في مواجهة ذلك الكم الهائل من المصطلحات التي وصفت التغييرات التي تطرأ على بنية الأسلوب . غير أن الملفت للنظر أن الكثير من الدارسين في حقل الدراسات النقدية يتعاملون مع هذه المصطلحات دون النظر إلى أن هناك أصولا لها في تراثنا النقدي .

يعد الالتفات خروجا عن مقتضى الظاهر لدواع بلاغية وحتى يحدث هذا الخروج تأثيرا في النفوس والأفكار , كما يمكن أن يعد فنا من فنون القول يشبه تحريك آلات التصوير السينمائي ينقلها من مشهد إلى مشهد لمفاجأة الشاهد بلقطات متباعدات[2]. وبذلك يعد من أضرب الخروج عن النسق الكلامي لخلخلة افق التوقع لدى القارئ لقيامه على عنصر المفاجأة والتحول في التعبير من صيغة إلى صيغة .

ومن هذا المنطلق عُد مبحث الالتفات من المباحث التي تعني بمناقشة دور المتلقي ودوره في تحقق المعنى وذلك بما يحدثه من تحول يضمن مشاركة فاعلة للمتلقي ؛ فالتنوع والاختلاف بين بنيات النسق يحدث خلخلة في النص تفضي إلى لفت انتباه المتلقي .

ويأتي ارتباط الالتفات بنظريات التلقي لكونه انتقالا يقع تحت مظلة العدول ؛ حيث يوفر الالتفات باعتباره انتقالا خاصية العدول ليتحقق للأسلوب طاقة إيحائية تؤثر بشكل فاعل في تكوين الاستجابة للنص .

قال الزمخشري عن الالتفات : " إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وتختص مواقعه بفوائد "[3].

وقال الزركشي : " هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه"[4] .

وقال ابن الأثير : " وحقيقة الالتفات مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله . فهو يقبل بوجهه ثارة كذا وثارة كذا . وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى خطاب غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر "[5].

ومن خلال البحث في كيفية معالجة موضوع الالتفات لدى علماء اللغة والبلاغة نجد أن الحديث عن القيمة البلاغية كانت محط اهتمامهم كما نلحظ جليا اهتمامهم بأثر هذه القيمة في نفس المتلقي وباعتبار أن مراعاة مقتضى الحال هو جوهر التعبير البليغ كما أن البلاغة تتحقق بالبلوغ أو الوصول إلى أحسن صورة للإدراك لدى المتلقي . ولهذا جاء في كتاب الإتقان للسيوطي قوله : " وللالتفات فوائد منها : تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال ؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد وهذه هي فائدته العامة ويختص كل موضع بنكث ولطائف باختلاف محله "[6].

ومن خلال تتبع دلالات هذه التعريفات يمكننا الربط بين الدراسات الحديثة حيث يمكن بحث الالتفات ضمن حقل دراسات التلقي والاستجابة الجمالية وبين الدراسات البلاغية القديمة ؛ فالحديث عن الانتقال المفاجئ وتطرية نشاط السامع والمخالفة داخل النسق يمكن أن نربطها بمصطلحات ومباحث نظريات التلقي الحديثة ؛ فبنية الالتفات يمكن مقاربتها في ضوء مصطلحات من مثل : الانزياح ـ الفجوة ـ مسافة التوتر . وكذلك يمكن اعتبار الالتفات وسيلة فنية أسلوبية لصدم المتلقي بمخالفة أفق انتظاره وهذا الأفق هو ما وصفه أحد النقاد بقوله هو : مجموعة من المعايير والمرجعيات التي يعتمد عليها المتلقي عند قراءته لأي عمل وتقويمه تقويما جماليا "[7].

وبذلك يمكن القول : إن بنية الالتفات تسهم في إيجاد (الفجوة : مسافة التوتر) في جسد النص وتمنح المتكلم حرية كبيرة في المناورة . فالالتفات بوصفه انزياحا يتيح للمبدع حرية كبيرة في إضفاء الحيوية على تراكيب النص من خلال تعدد زوايا الرؤية[8]. وبذا يصبح الالتفات "خاصية بارزة في حركة الصياغة موضعيا ؛ حيث تتحور اللفظة في موضعها تحورا غير مألوف يعزز دلالة فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي , وفيها كثير من إمكانات المبدع في استعمال الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة "[9].

ولاستيفاء جزئيات الجانب التأصيلي لدى الزمخشري لابد من الوقوف على آراء أهم علماء البلاغة في تلك المرحلة ولعل من أبرزهم ضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وهو من الذين كان لهم موقف مميز من موضوع الالتفات وقد وجه نقدا للزمخشري عند تحديده لقيمة الالتفات قال ابن الأثير : " اعلم أن المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا كذلك كانت عبارة العرب في أساليب كلامها . وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن إنما نسأل الذي قصدت العرب ذلك من أجله "[10]. ثم يردفه بقول الزمخشري : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه "[11] . ويعقب ابن الأثير منتقدا الزمخشري في تعليله بقوله : " وليس الأمر كما ذكره ؛ لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط

السامع وإيقاظا للإصغاء إليه فإن ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح في الكلام لا وصف له لأنه لو كان حسنا لما مل .... ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه لا قصدا لاستعمال الأحسن . وعلى هذا فإذا وجدنا كلاما قد استعمل في جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه , أو استعمل في جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا في موقعه قلنا : هذا ليس بحسن ؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب وهذا قول فيه ما فيه . وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة ؟ والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضتها . وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب "[12].

وعند التدقيق والتمعن في نقد ابن الأثير للزمخشري نرى أن الأول وقف عند المعنى الحرفي الظاهر لكلام الزمخشري وحمل ظاهر الكلام من مثل : (تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه) على ما يلزم عنها من معاني المخالفة وجعلها متعلقة ببنية النص , وأن التطرية والإيقاظ يستلزمان أن هناك صفة في النص تستدعي وجود انتقال من حال إلى حال تفاديا لإملال السامع , وهذا افتراض خاطئ تماما ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى لإغفال ابن الأثير أن هذه التقنية البلاغية تتعامل مع مقتضيات حال المخاطب كما هو الحال في سائر الفنون البلاغية . وبعد مناقشة هذه المساجلة من واقع نظرية التلقي التي تجعل القارئ في صدارة اهتمامها , فإنه يمكننا تغيير زاوية النظر في كلام ابن الأثير في تعامله مع توجيه الزمخشري لمعنى الالتفات ؛ ذلك أن الانتقال والتنويع في الأسلوب ومدى إحداث المخالفة في الصيغ لا يلزم عنه وصف الأسلوب بالإملال إذا خلا عن الانتقال والتنويع , وإنما الأمر يتعلق في جملته بالمتلقي وكيفية إجراء الأسلوب على صفة تناسب حاله وتجعله متعلقا بالخطاب حاضرا بعقله وقلبه . وعلى كل فلا يعدو كون الانتقال وسيلة من الوسائل وتقنية من التقنيات الأسلوبية وما أكثرها في الخطاب القرآني المعجز . والإيقاظ والتطرية كما يحصلان بالانتقال قد يتحققان بوسائل وكيفيات أخرى بحيث لا يتوقع وجود إملال في النص القرآني في آية واحدة أو آيات سواء حصل فيها انتقال أم لم يحصل وهذا الفهم يمكن تحصيله من خلال تحليل لفظ (التفنن) الوارد في توجيه الزمخشري السابق في قوله تعالى : " إنما يستعمل للتفنن في الكلام وفنون الكلام كثيرة ومتنوعة منها الانتقال أو الالتفات كما أن القصد إلى المخالفة الذي فهمه ابن الأثير من توجيهات الزمخشري لسر الالتفات ليس هو غاية الالتفات , بل إن هذه المخالفة المتحققة في النص تكمن خلفها أسرار تنبع من حال القارئ وكيفيات استجابته للنص ؛ فجعل المخالفة أمرا مقصودا لذاته في منظور ابن الأثير وجعل الانتقال مقصورا عليها , وأن هذه المخالفة قد لا ينظر لها باعتبار إرادة الأحسن أمر لا يمكن قبوله وربما يصبح ابن الأثير في دائرة التحامل على الزمخشري .

نماذج تطبيقية

الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

يقول تعالى : { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } الأنبياء 92 , 93 .

نرى هنا في هذه الآية إقبال الله عز وجل على الأمة عندما كانت ملتزمة بشرعه . فخاطبهم بضمير الخطاب (أمتكم ـ ربكم) تشريفا لهم ثم جاء الالتفات إلى ضمير الخطاب (تقطعوا أمرهم بينهم) إشارة إلى تفرقهم وبعدهم عنه سبحانه ؛ فانصرف الله عنهم ؛ فهم لم يعودوا أهلا للخطاب قال الزمخشري : " والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله والمعنى جعلوا امر دينهم فيما بينهم قطعا "[13].

ويقدم الزمخشري ذات التحليل في قوله تعالى : {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }يونس22 حيث يقول : " فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح "[14].

ولو تتبعنا تحليلات الزمخشري لمسلك القرآن في الانتقال الذي يتحرك وفقا للبعد المقامي وما يقتضيه من تنويع فإننا سنقف على مبدأ أصيل في هذا التنويع وهو تناغم هذا التنويع مع حركة النفس وجذب المتلقي نحو تأسيس أفق انتظار جديد وهذا ما يمكن إدراكه عند مطالعة تعليقه على قوله تعالى : { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } البقرة 169 , 170 .

حيث جاء الانتقال إلى ضمير الغيبة تماشيا مع معنى الانصراف عن المعنيين بالخطاب إمعانا في ازدراءهم . يقول : " عدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم لأنه لا ضال أضل من المقلد , كأنه يقول للعقلاء : انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون "[15]

وفي ذات السياق يمكن أن نسجل تحليل الزمخشري لقوله تعالى : {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ }الروم39 . يقول الزمخشري : " التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يبتغون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون والمعنى المضعفون به لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى (ما) ووجه آخر وهو أن يكون تقديره فمؤتوه أولئك هم المضعفون . والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مدخلا والأول أملأ بالفائدة "[16].

يمكن من خلال تحليل الزمخشري التعرف على البعد القيمي للأسلوب الالتفاتي ؛ فالتغيير الذي طرأ على نسق العبارة يضع القارئ أمام مشهد تعبيري من أجل تسجيل حكم في إطار مقامي مناسب وقد تم هذا الحكم بنقل حركة الضمير من الخطاب إلى الغيبة بحيث يمكن بسهولة إدراك أن الحكم الذي قررته الآية في حق المنفقين يكون آكد وأقوى في حال الحكم على الشخص في

غيابه كما إن صيغة الغياب هنا تنبئ بأن هذا الحكم هو حكم عام في كل من تحققت فيه صفة المنفق ابتغاء وجه الله . وهذا يتضح بجلاء عند المقارنة بين الصيغة قبل العدول (أنتم) وهي الصيغة التي جاء عليها النسق وبين الصيغة بعده (هم) . وفي هذا ما يؤكد بجلاء أن المتلقي كان في بؤرة الاهتمام ؛ فقد جاء الخطاب في الآية السابقة في معرض المدح والثناء وبيان المنزلة الرفيعة وكأن المولى . سبحانه . يحكي الخبر لهم على سبيل الاستعظام لعملهم وهذا المسلك بالتأكيد يكون أدعى لانجذاب المتلقي .

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } يونس22 .

يقول الزمخشري : "فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : المبالغة , كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح "[17]. فالتقرير في سياق الغيبة جاء هنا ليؤكد حالة عامة في طبيعة البشر وليكون التقرير في الحكم مشركا للغير وهذا بالطبع أدعى للتعجيب من أمرهم من أن لو بقي الأسلوب دون صرفه إلى الغيبة .

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب

قال تعالى : {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى } سورة عبس . الآيات 1 ـ 4.

قال الزمخشري : "وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجها له في التوبيخ وإلزام الحجة "[18].

ولعل في تأملنا للسياق الذي وردت فيه الآية ما يعين على قراءتها في ضوء هذا الانتقال السريع من الغيبة إلى الخطاب مع بعض التحفظ على القياس الذي جاء به الزمخشري ؛ إذ المقام ليس مقام شدة إنكار أو جناية وهذا يوحي به تقديم ضمير الغيبة في ذكر العبوس والتولي ثم الحاق ذلك بالتوجه مباشرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ولو استمر السياق على الغيبة فقال : وما يدريه لعله يزكى , لأوهم ذلك التغييب المستر اللوم الشديد لنبيه . صلى الله عليه وسلم . فتحنن في تغييبه , وتلطف في خطابه , وهكذا أبرز الانزياح حالة الانتقال من اللوم والعتاب إلى التحنن والتلطف في الخطاب من خلال تحول التشكيل الصياغي من الأحادية (غياب ← غياب) المتمثلة في البنية العميقة إلى الثنائية الضدية (غياب ← خطاب) المتمثلة في المستوى السطحي للصياغة[19]

قال تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً } سورة مريم . الآيتان : 88 , 89 .

قال الزمخشري : " وفي قوله : (لقد جئتم) وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا "[20].

يظهر جليا من خلال النظر في تحليل الزمخشري لأسلوب الالتفات تركيزه على موقف المتلقي بوصفه محور ارتكاز في الخطاب القرآني كما إنه يمكننا أن نستشف رؤيته للمنهج القرآني في نقل التسجيل الحواري المصور ؛ فالصورة المنبثقة من الالتفات هنا تضع القارئ من خلال التبديل في طريقة تقرير المعاني التي تتأكد عن طريق التسجيل بالمواجهة المباشرة للمعني بالخطاب أمام مشهد

موثق تتراسل معانيه داخل النسق الذي حصل به كسر في النمط التعبيري ؛ فبالانتقال والمغايرة في تصريف الضمائر يحصل التأكيد . وهذا ما يعنيه الزمخشري بقوله : (زيادة) الإنكار) (زيادة تسجيل) وهذه الزيادة تناتجت بطريق الالتفات . والانتقال إلى القائل بضمير الخطاب يكون بلا شك ألزم في الحجة وآكد في تقرير الحكم حضوريا .

الالتفات من التكلم إلى الخطاب

قال تعالى : { وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } سورة يس . الآيات 20 ـ 22 .

قال الزمخشري : "(مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ) كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي : لا تخسرون معه شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الاخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ولقد وضع قوله : (وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) مكان قوله : ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ألا ترى إلى قوله : (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال : (آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) "[21].

جرى الالتفات هنا بصورة الحوار مع الذات وحدث الانكسار في بنية النسق من الخطاب إلى التكلم ؛ فالمتكلم هنا أقحم نفسه في التعبير ووجه اللوم إليها وأنه لو لم يفرد الله وحده بالعبادة لكان من أهل الضلال . فالنصح كان موجها بالأساس إلى قوم الرجل بدليل أنه قال في آخر الآية : (إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) فالزمخشري يشير بقوله : (ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إمحاض النصح) إلى خاصية مهمة في الالتفات والانتقال من صيغة إلى صيغة وهي التاثير في المخاطب وجعله أكثر استجابة بما يحدثه هذا الانتقال من خلخلة دلالية تجعل المخاطب يعيد ترتيب مداركه وكأن المتكلم هنا يستخدم بطريق الالتفات أسلوب الحوار وما فيه من مجاراة للخصم على قاعدة : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) . والمقام هنا مقام المحاجة بوحدانية الخالق وإبطال ما ادعاه عبدة الأوثان فاقتضى الحوار استخدام ضمير المخاطب .

ويوجه الزركشي هذا الالتفات بقوله : " وعبر بقوله : (وإليه ترجعون) بدل : (وإليه أرجع) ليفيد التلطف في توجيه قومه وإعلامهم بتوحد مصيره مع مصائرهم وتنبيههم إلى أنه مثلهم في وجوب عبادة من إليه المرجع والمآل "[22].

الالتفات من التكلم إلى الغائب

قال تعالى : { طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى } سورة طه . الآيات 1 ـ 4 .

قال الزمخشري : " فإن قلت ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب ؟ . قلت : غير واحدة منها : عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة ومنها أن هذه الصفات إنما تفردت مع لفظ الغيبة . ومنها أنه قال أولا : (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى

ضمير الواحد المطاع ثم ثني بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين . ويجوز أن يكون (أنزلنا) حكاية لكلام جبريل . عليه السلام . والملائكة النازلين معه وصفة السماوات بالعلى دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها "[23] .

الالتفات في الأفعال

قال تعالى : {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }الروم. الآية 48

قال الزمخشري : " فإن قلت لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الريح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم التخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرا:

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت صـريعا لليـدين وللجـــران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا , وأحيينا معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه "[24] .

نلحظ من خلال تحليل الزمخشري لبنية الالتفات ربطه المباشر بين كسر النسق الأصلي القائم على بنية الفعل الماضي بصيغة المضارع وما تحدثه في ذهن المتلقي من صورة متحركة بما تحمله هذه الصيغة من قوة تصويرية تحمل المتلقي على تصور المعنى وتحيله إلى تأمل وقائع الصورة المتكررة في الطبيعة . وهذا يضعنا جنبا إلى جنب مع منجزات مدرسة التلقي وبالأخص فيما يتعلق بالتعامل مع أفق توقع القارئ وإحداث كسر في النسق التعبيري وما يحدثه من أثر لدى المتلقي يجعله يعيد ترتيب بنية المعنى في نفسه .

والأمر ذاته يظهر لدى الزمخشري في تحليله لبنية الالتفات في الفعل عند تحليله لقوله تعالى : {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } البقرة أية 87

يقول : " فإن قلت هلا قيل : وفريقا قتلتم ؟ قلت هو على وجهين : أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فاريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب , وأن يراد وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة "[25] .

فالزمخشري في هذا التحليل يضع أمامنا القيمة الجمالية والتعبيرية لبنية الالتفات وكيفية تحقيق هذه القيمة لدى المتلقي ويتم ذلك

عن طريق إحداث خلخلة في بنية النسق ومخالفة التسلسل في الكلام الذي يقتضي التناسب والثبات فجاءت هذه الخلخلة لتحدث صدمة لدى المتلقي فتلفت انتباهه وتوقظه إلى هذا التغيير والانحراف في النسق التعبيري .

ولأجل إثبات الصورة المتجددة يحصل التحول وصرف الفعل إلى الفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار يقول الزمخشري في قوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } الحج63 . " فإن قلت هلا قيل : فأصبحت . ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول : أنعم علي فلان عام كذا , فأروح وأغدو شاكرا له . ولو قلت : فرحت وغدوت ؛ لم يقع ذلك الموقع[26].

نجد أن الزمخشري هنا استخدم للدلالة على الانتقال كلمة : (صرف) والصرف يعني التحول والانتقال وقد حصل هنا في التحول من الماضي إلى المضارع لتكون صورة اخضرار الارض ماثلة شاهدة أمام أعيننا وهذا من الحكم في إنزال الماء .

ويمكن الوقوف على القيمة التعبيرية لبنية النسق الالتفاتي الذي يعتمد المنحى الاستبدالي في قائمة الخيارات والمفاضلة في زمن الفعل بحيث يمكن أن نحصل على المعني الذي يختص به الفعل من حيث الزمن ؛ فعندما نطالع تحليل الزمخشري لقوله تعالى : { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } النمل 87 . يقول : " فإن قلت لم قيل : ففزع دون : فيفزع قلت : لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السماوات والأرض لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به . والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون "[27] . فالزمخشري هنا يضعنا في صورة أخرى مغايرة تتمثل فيها كيفية استثمار الحمولة المعنوية للفعل بحيث كان استخدام الانتقال بعكس الصورة السابقة فتم الانتقال من المضارع إلى الماضي ليقف المتلقي عند هذا التغيير المفاجئ في نسق الآية وتتركز في مخيلته صورة الفزع يوم القيامة .

{ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ }. هود . 52 ـ 55 .

يقول الزمخشري مبينا قيمة الانتقال والعدول الحاصل في نسق الآية : " فإن قلت : هلا قيل : إني أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده , وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب . فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما , وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة , كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه . اشهد علي أني لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله"[28] .

يمكننا من خلال مقاربة تحليل الأسلوب الانزياحي في الآيات السابقة القول بأن الزمخشري يركز على بؤرة المخالفة للنمط التي تمثلت في الانتقال من الفعل المضارع (أشهد الله) إلى فعل الأمر (اشهدوا) وليكون هذه متساوقا مع السياق المقامي ؛

فلكل مقام مقال . ومن هنا تباين الإشهادان ؛ فإشهاد الله جل وعلا جاء بصيغة المضارع مراعاة لجانب التأدب في مخاطبته . أما فيما يخص نبي الله هودا مع قومه فالأمر مختلف . وعلى هذا كان التغاير ؛ فالفرق المعنوي بين الإشهادين أوجد انزياحا على مستوى البنية السطحية للعبارة حيث ينبهنا هذا الانزياح إلى التباعد بين الموقفين بما يحدثه من خلخلة في البنية وكسر للنمط المتوقع ليكون التعبير بلفظ الأمر متناسبا مع حالة القوم المكذبين ؛ فهم أقل شأنا من أن يكونوا في موقع المستشهدين بعد أن كذبوا هودا عليه السلام في رسالته . كما إنه يمكننا رصد المنحى التأصيلي لأفكار نظريات التلقي الحديثة من خلال ملاحظة تعبير الزمخشري بلفظ (فعدل) لتأكيد علاقة الكسر في النمط والمخالفة التعبيرية باتساع هوة الخلاف بين الموقفين وتباعد ما بينهما . فنحن هنا أمام إشهادين لا إشهاد واحد وجيئ مع كل حال بما يناسبه ؛ فالمخلوق لا يجد أم خالقه إلا أن يكشف له عما في نفسه وهو لا يملك أن يأمره بذلك ولكن الأمر مع المخلوقين يختلف وخصوصا إذا كان مبغضا لهم منكرا لفعلهم فهو لا يجد نفسه مطالبا بالكشف لهم عما في نفسه أمامهم . ولعل في كل ذلك ما يضعنا أمام نتيجة مهمة مفادها أن هناك ارتباطا بين ظاهرة الالتفات وفكرة تعدد القراءة التي اشتغلت عليها مدرسة التلقي الحديثة .

وكما يحصل الالتفات في الضمائر والأفعال نجد أن له حضورا في العدد وذلك في الانزياح عن المفرد إلى المثنى كما في قوله تعالى : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } المائدة 64 . يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم ثنيت اليد في قوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) وهي مفردة في : (وقالت اليهود يد الله مغلولة) قلت : ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه . وذلك أن غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه ان يعطيه بيديه جميعا فبنى المجاز على ذلك [29] .

في الآية السابقة يتابع الزمخشري رصد القيمة البلاغية للمخالفة الأسلوبية وما يضفيه الانزياح في النسق من شد لانتباه المتلقي إلى هذا التغير مع ملاحظة أنه يبرز من خلال تحليله توجهه الاعتزالي في التوسع في المجاز بحيث يؤكد على منهجه التأويلي في موضوع الصفات .

وفي ذات السياق يمكن متابعة موقف الزمخشري من الانزياح العددي في قوله تعالى : {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ }التوبة62 . يقول : " وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فكانا في حكم مرضي واحد"[30].

نري من خلال ما تم عرضه من نماذج مثلت قراءة الزمخشري لأسلوب الالتفات بما يثبت أن هذا الأسلوب ليس عملا عشوائيا وليس ضربا من التكلف , وإنما هو عمل يقتضيه السياق ويهدف إلى زيادة الكفاية الأسلوبية من خلال التجديد والمغايرة مع الأخذ بالاعتبار استيعاب حال المتلقي كما يقوم الالتفات على فكرة صدم أفق الانتظار لدى المتلقي مما يترتب عنه توليد الصدمة لديه

ويترتب عنها اليقظة والنشاط الذهني . وقد عبر الزمخشري عن الالتفات بعدة صيغ منها الانصراف والعدول وهذا الانصراف أو العدول مما يكسر الرتابة في النص من خلال التنويع وجذب انتباه المتلقي وإخراجه من دائرة الجمل الخبرية . ولعل هذا هو معنى قول الزمخشري : (تختص مواقعه بفوائد) .

ويتأكد لدينا هنا ارتباط الالتفات بحال المتلقي النفسية حيث ينتج عن الالتفات هزة شعورية في نفس المتلقي . وهذا من أهم الفوائد التي أشار إليها الزمخشري . وهنا يمكن أن نسجل رأي يحيى بن حمزة العلوي في كتابه الطراز حيث يقول : " القول الثالث محكي عن الزمخشري وحاصل مقالته هو أن ورود الالتفات في الكلام إنما يكون إيقاظا للسامع من الغفلة وتطريبا له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر . فإن السامع ربما مل من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطا له في الاستماع واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقول . وما ذكره الزمخشري لا غبار على وجهه وهو قول سديد يشير إلى مقاصد البلاغة "[31] .

وإذا كان الالتفات وفقا للبلاغيين ـ ومنهم الزمخشري ـ واحدا من أنواع العدول فإن هذا العدول يحقق أيضا وفقا لنظريا التلقي الحديثة استجابة لأفق انتظار المتلقي أو إدهاشا أو مفاجأة بالانتقال من حال إلى حال أو من معنى إلى آخر أو من طريقة إلى أخرى . والانتقال أو التغيير أساس من أسس التداولية مثل تكييف أفعال الكلام بحسب المتلقي ومقامه[32].

ومما يمكن تقريره من خلال إمعان النظر في تحليلات الزمخشري لأسلوب الالتفات هو أن هناك إدراكا للبعد النفسي لهذا المسلك الأسلوبي وبهذا فهو يقف في خط واحد مع ما طرحته نظريات التلقي الحديثة يقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 " لما عدد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم , وما اختصت به كل فرقة بما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور عند قوله : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 . وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع . كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما : إن فلانا من قصته كيت وكيت , فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت : يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك . نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازًّا من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع ويستهش الأنفس للقبول"[33] .

يمكن من خلال النص السابق أن نقف على جانب تأصيلي ذي أهمية بالغة فيما نحن بصدده من قراءة لبلاغة الالتفات لدى الزمخشري حيث نلحظ إدراك الزمخشري للبعد النفسي للالتفات ؛ لأن ما يحدثه العدول عن المتوقع الذهني عند المتلقي من إيقاظ لنفسيته وتحريكها مما يجعلها دائمة المتابعة من خلال التجديد والتنويع والمفاجأة . وهذا يشكل ـ بلا شك ـ وسيلة ناجعة لجعل المتلقي متفاعلا ومشاركا في تحقق المعنى .

ولقد مر بنا من خلال مطالعة الخلاف الذي وقع بين ابن الأثير والزمخشري أن الأخير كان يريد ان يجرد وظيفة مطلقة كاملة لكل حالات الالتفات فأرجعها إلى حركية إيقاع الجملة وأنها نوع من التنويع , وأن حركية الإيقاع هي التبرير الكافي لكل حركات الالتفات . والزمخشري هنا كان أكثر عمقا ووضوحا ؛ فهو يريد أن يضع لنا تحليلا كليا يكون أكثر خصوبة يتجاوز الجزئيات إلى تبيان قاعدة عامة تنتظم أشكال الالتفات في تجاوبها مع السياق [34] .

ويمكننا من خلال ما سبق أن نتبين أن جماليات الالتفات وقيمته الفنية لا تخضع بالدرجة الأولى للتقسيمات النمطية التي درج عليها البلاغيون ؛ لأن هذه التقسيمات ـ كما هو الحال في الالتفات ـ ترتهن أساسا للعبة الضمائر(الأنا . الأنت ـ الهو) التي هي تحولات أسلوبية تتم وفقا لما يقتضيه السياق التعبيري وعلى ذلك يمكننا أن ندرك بسهولة هذه النتيجة من خلال ما قرره الزمخشري عند تحليله لصيغة الالتفات في قوله تعالى : { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } البقرة 169 , 170 . وما سجله من فرق في الغرض من الالتفات عند تعليله لذات الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى : { وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ }الروم39 . فالالتفات جاء في الأولى في سياق الذم والازدراء بينما جاء في الثانية في معرض المدح والثناء وبيان المنزلة الرفيعة . فالالتفات وما دار في فلك الحقل الدلالي للمصطلح من نحو : (الانتقال . الانصراف . الانحراف . العدول) لا يخضع لصيغة تحولية معينة , وإنما يتم التغيير في نسق الضمير او النسق الزمني في الفعل وفقا لمقتضيات السياق وحال المخاطب .

وبهذا يمكننا تقرير أن الانحراف وفقا للمنهجية التي سلكها الزمخشري في تحليله لصيغ الالتفات لم يكن عملا عشوائيا حصل لمجرد الانحراف أو التماسا للغرابة وإنما تحكمه مقاصد معنوية تترشح لدى منشئ الخطاب فستدعيه لإحداث مخالفة في الصيغة بعد أن ترجح لديه أن النسق الأصلي لا يفي بمتطلبات الدلالة الدقيقة التي يريد توصيلها .

ولعل في ما سبق ـ أيضا ـ ما يفضي بنا إلى نتيجة مؤداها أن الالتفات وما ينطوي عليه من أمور نفسية ومعنوية تجعل الالتفات في دائرة علم المعاني ؛ فهو لا يقف عند جانب الزخرف اللفظي الذي يعنى به علم البديع ومع ذلك فإنه لا يهمنا البحث في التفريعات والتقسيمات البلاغية بقدر ما يهمنا البحث في صيغة الالتفات من حيث القيمة الجمالية والدلالية ؛ وعلى هذا فلا ينبغي الفصل أساسا بين المباحث البلاغية وكذا علوم البلاغة جملة عند البحث في هذه القيم الذي هو أساس البحث البلاغي ؛ فعملية الفصل بين علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع هي عملية تنظيمية لا غير .

الهوامش

[1] ـ لسان العرب . لابن منظور . مادة ل ف ت .
[2] ـ ينظر . دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية . د. سليمان الطراونة . نشر جامعة فيلادلفيا . عمان . 1992م. ص 118 – 141 ص 483 – 488 .
[3] ـ تفسير الكشاف . للزمخشري . ط دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . د ت . ج 1 . ص 14 .
[4] ـ البرهان في علوم القرآن . للزركشي . ت. محمد أبو الفضل إبراهيم . ط. دار إحياء الثرات . القاهرة . د. ت ج 3 . ص 314
[5] ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر . لضياء الدين ابن الأثير . ت . د.أحمد الحوفي و د.بدوي طبانة .ط.دار نهضة مصر .القاهرة .د.ت. ج 2 .ص 135
[6] ـ الإتقان في علوم القرآن .لجلال الدين السيوطي . ت محمد أبو الفضل إبراهيم . ط المكتبة العصرية . بيروت . 1987 م . ج3 . ص 253 .
[7] ـ الأدب العام والمقارن . دانيال هنري باجو . ترجمة غسان السيد . منشورات اتحاد الكتاب العرب . ص 73 .
[8] ـ انظر . نهر المجرة . مختارات من شعر البياتي . ط هيئة قصور الثقافة . سلسلة آفاق الكتابة . القاهرة . العدد السادس . 1998م . ص 13 .
[9] ـ جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم . د.محمد عبد المطلب .ط الشركة المصرية العالمية للنشر . القاهرة . الطبعة الأولى . 1995م . ص 163 , 164 .
[10] ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر . ج 2 . ص 137 .
[11] ـ تفسير الكشاف . للزمخشري .ط دار الكتاب العربي . د.ت . ج 1 ص 14 .
[12] ـ المثل السائر ج 2 ص 135 , 136 .
[13] ـ تفسير الكشاف . ج3 . ص 134 .
[14] ـ الكشاف . ج 2 . ص338 .
[15] ـ الكشاف . ج 1 . ص 213 .
[16] ـ الكشاف . ج 3 . ص 481 .
[17] ـ الكشاف . ج 2 . ص 338 .
[18] ـ الكشاف ج 4 ص 701 .
[19] ـ انظر . أسلوبية الانزياح في النص القرآني . رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة مؤتة 2008 . ص 120 .
[20] ـ الكشاف . ج 3 . ص 45 .
[21] ـ الكشاف . ج 4 . ص 10 .
[22] ـ البرهان في علوم القرآن . ج 3 . ص 316 .
[23] ـ الكشاف . ج 3 . ص 51 .
[24] ـ نفس المصدر والجزء . ص 601 .
[25] ـ الكشاف . ج 1 . ص 162 .
[26] ـ نفسه .ج 3 . ص 168 .
[27] ـ نفسه . ج 3 . ص 386 .
[28] ـ نفسه . ج 2 . ص 403 , 404 .
[29] ـ نفسه . ج 1 . ص 656 .
[30] ـ نفسه . ج 2 . ص 285 .
[31] ـ الطراز .المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. ليحيى بن حمزة العلوي . ط مطبعة المقتطف . مصر . سنة 1333هـ . ج 2 . ص 133 .
[32] ـ ينظر . اللغة ودلالاتها . محمد سوبرتي . مجلة عالم الفكر . م 28 . ع 3 . يناير , مارس / 2000م
[33] ـ الكشاف .ج 1 . ص 88 , 89 .
[34] ـ انظر . قراءة جديدة لتراثنا النقدي . أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في نادي جدة الأدبي الثقافي في : 19 إلى 24 / 11 / 1988 م . نشر النادي الأدبي الثقافي . جدة . 1990 م . مداخلة د. صلاح فضل على ورقة د. عز الدين إسماعيل (جماليات الالتفات) . ص 911 .